صورة الشرق من خلال «المعارج المرقية في الرحلة المشرقية» للرافعي التطواني (١٠٩٦هـ/١٦٨٤م)*

د. مصطفى عبدالله الغاشي
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة عبدالمالك السعدي- تطوان - المغرب

تقديم:

كثيرة هي المصادروالوثائق المغربية التي ما زالت لم تنل الاهتمام الكافي من طرف المؤرخين والباحثين المغاربة، ولاتعود أسباب ذلك إلى ضعف قيمتها بقدر ماتعود إلى عدم الإقبال عليها أو في بعض الأحيان صعوبة الوصول إليها. وتعدّ هذه الظاهرة بدون شك إحدى معوقات البحث العلمي الذي لم تتخذ بشأنه أية إجراءات في إطار الاهتمام والحفاظ على التراث المغربي المكتوب. وفي هذا السياق يمكن عدّ رحلة الرافعي التطواني «المعارج المرقية في الرحلة المشرقية» نموذجًا لهذا الوضع الشاذ؛ ذلك أنه على الرغم من قيمتها التاريخية والأدبية؛ فإنها ظلت تقريبًا شبه مجهولة، باستثناء بعض الإشارات العارضة أو المواضيع اليتيمة: فقد عرفنا بها مؤرخ تطوان محمد داوود في مؤلفه "تاريخ تطوان" الجزء الأول (ص٤٩٠)، وذكرها محمد المنوني في كتابه الببليوجرافي «المصادر العربية لتاريخ المغرب» الجزء الأول ص ١٨٨. أما من حيث الدراسات فلا نعلم إلا بموضوع الدكتور حسن الوراكلي: "أصداء من حياة تطوان العلمية في رحلة تطواني من أهل القرن الحادي

عشر الهجري" الذي نشر بمجلة "المناهل" العدد ٥٢، سبتمبر ١٩٩٦، ص ص ١٧-٢٩، كما نشر ضمن أعمال ندوة "تطوان خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر"، تطوان ١٩٩٦، ص ص ١٥١-١٦٣ .

ومما هو جدير بالملاحظة أن موضوع الدكتور الوراكلي، وكما هو بارز من عنوان دراسته لم يهتم بالرحلة في حد ذاتها، وإنما «أصداء من حياة تطوان العلمية» فقط .

إن هذه المعطيات الشحيحة، وهذا الإهمال المتواصل، يدفعنا للقيام بحفريات في ذاكرة هذا الرحالة من خلال رحلته المعروفة بـ"رحلة الرافعي" : "المعارج المرقية في الرحلة المشرقية" .

إن أحداث الرحلة تتحدد زمانيّاً في النصف الثاني من القرن السابع عشر وبالضبط خلال عشر السنوات الأولى من حكم المولى إسماعيل ١٦٢٦ - ١٦٧٢ على وجه التقريب. وبغض النظر عن خصائص ومميزات بداية الحكم الإسماعيلي للمغرب (ثورات، تمردات، بالإضافة إلى بعض السواحل المحتلة. . .)؛ فإن علاقته بالشرق العربي الإسلامي، وتحديداً بالباب العالي قد تميزت بـ:

أولاً: ميراث ثقيل يخص العلاقات المغربية العثمانية تمتد جذوره إلى عهد السلطانين العلويين محمد الشريف والرشيد، إنها مسألة تتعلق برسم الحدود، والشرعية والاستقلال(١).

ثانيًا: كما يذكر بنحادة مناوشات عسكرية على الحدود مع أتراك الجزائر؛ هذا على الرغم من وجود اتفاق مبدئي منذ بداية حكم السلطان إسماعيل يقر ما تم الاتفاق عليه بين الطرفين على عهد محمد والرشيد(٢) بالإضافة إلى التدخل التركي في الشئون الداخلية للمغرب من خلال تمويلهم لتمرد الأمير أحمد محرز بالجنوب المغربي.

ثالثًا: تحرك الآلة الدبلوماسية المغربية باتجاه الباب العالي، والآلة الدبلوماسية العثمانية باتجاه المغرب بهدف محاصرة النزاعات، التي يبدو على إثرها أن

العلاقة قد عرفت نوعًا من الاستقرار، سوف يستغلها المولى إسماعيل للتفرغ لترتيب أوضاع المغرب الداخلية السياسية منها والعسكرية(٣).

رابعًا: تدخل طرف أجنبي لتحريك الصراع بين الأتراك والمغاربة لتقويض معاهدة السلم المتفق عليها بين الطرفين. . وعلى هذا الأساس، فقد سعت فرنسا تحت حكم Louis XIV إلى ضرب هذا التقارب من خلال استعمال حرب الشائعات، واختلاق روايات للوقيعة بين المغرب والسلطة العثمانية(٤)، ويبدو من خلال الأحداث أن فرنسا لم تكن ترغب في أي تقارب بين المغرب والباب العالي خاصة في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط.

وإذا كان لهذه المعطيات السياسية والعسكرية حضور كبير على مستوى العلاقات الرسمية المغربية العثمانية؛ فإنها لم تؤثر بشكل جذري عليها في مستوياتها الاجتماعية والدينية والعلمية، إذ استمر التواصل بين المغرب والمشرق ولم يعرف انقطاعًا أبدًا، خاصة على المستوى الاجتماعي، ولقد قامت الرحلات المغربية على اختلاف أهدافها، وعلى طول التاريخ الحديث بدور فاعل في الحفاظ على هذه العلاقات المتميزة وتطويرها، وهذا بخلاف الرحلات الأوربية إلى الشرق، التي كانت تزدهر أو تضمحل حسب مستوى العلاقات الرسمية، مثال ذلك أن الرحلات الفرنسية ازدهرت بالمشرق نتيجة لتوقيع معاهدة ١٥٣٥ بين فرنسا والباب العالي، التي بموجبها منحت الثانية إلى الأولى امتيازات سياسية وتجارية ودينية وقانونية داخل التراب العثماني(٥).

إن الاهتمام المغربي بالشرق كتابة وزيارة هو أكثر من اهتمام المشرق بالمغرب، فهل مرد ذلك إلى وجود الأماكن المقدسة بالشرق! أم أن المغاربة كما هو الشأن بالنسبة للأوربيين كانوا يعانون من La Séduition de L'exotiswe أي الافتتان بقيم الآخر وحضارته الذي كان يؤطر نظرتهم للمشرق، وإن كانوا ينتمون إلى رابطة واحدة هي الرابطة الإسلامية؟ أم أن المشارقة لم يجدوا في المغرب مايثير فضولهم وإعجابهم؟

إن ما هو مؤكد تاريخياً أن الحضور المغربي بالمشرق يشكل ظاهرة خاصة بشرياً وسياسياً وتجارياً ودينياً واجتماعياً(٦)، إذ لم تستطع الانتماءات السياسية المتباينة بين المشرق والمغرب الحيلولة دون حركة الانتقال البشري بين الطرفين، فقد أقام المغاربة بكل من مصر والشام والحجاز، ومازال الكثير من الأرشيفات التابعة للمحاكم الشرعية في القاهرة ودمشق ومكةالمكرمة والمدينة المنورة يحفظ لنا أسماء المغاربة الذين أقاموا بها (في المغرب).

إن مايعرف بأدب الرحلة ما هو في الواقع إلا نتيجة من نتائج الحركة الدائبة والمستمرة بين المغرب وباقي الأقطار والأمصار التي توجه إليها المغاربة باتجاه الشمال أو الجنوب أو الشرق (أو حتى داخل المغرب نفسه). غير أن ماعرف بالرحلة الحجازية قد احتل حيزاً أكبر بالمقارنة بباقي أنواع الرحلات الأخرى. فقد ازدهر هذا التراث الأدبي في المغرب على الخصوص منذ فترات قديمة أي منذ رحلة ابن جبير وابن بطوطة، وعلى الرغم من أن الهدف من الرحلة هو ديني بحكم تنفيذ ركن من أركان الإسلام أي الحج؛ فإن هذا الجنس الأدبي ظل مهمشًا ومضطهداً "ونصاً مساعداً لنص مركزي" (٧) على الرغم من كونه يتضمن معطيات تاريخية قد لانجدها إلا في الرحلة، هذا فضلاً عن كونه أصبح وثيقة أساسية في الدراسات الإنطربيولوجية والجغرافية . . . إلخ.

وإذا كان الرحالة عادة، وتحديداً في الرحلة الحجية، يؤكد في مطلع رحلته على كون الحج هو الذي يؤطر الرحلة (كما هو الشأن بالنسبة لرحلة الرافعي التي تشير بدءًا إلى أن لغتها العربية ركيكة وألفاظها من اللهجة المغربية كثيرة: «لما أصابني من الشغف وخامرني من الوجد والكلف، صاحب خير الأنام طه، وأعظم الخلق قدراً وجاهًا، والتلذذ بفروع من رق وعلاها»)(٨).

فإن ذلك لاينفي عنها كونها المصدر الوحيد للمشاهد خلال الرحلة؛ بل وأيضًا تأديتها دوراً إعلامياً وتواصلياً مهماً في نقل أخبار المشرق والمغرب، بل والأهم من ذلك أنها عملت على تشكيل ذهنية العصر من خلال التركيز على أهمية زيارة المشايخ والأضرحة والأولياء والتبرك بهم. . . إلخ.

الرافعي ورحلته إلى الشرق:

مما هو مؤسف أن الكتب التاريخية وكتب التراجم لم تترك لنا معطيات مهمة عن حياة هذه الشخصية المغربية التطوانية، التي من شأنها أن تقربنا أكثر منه ومن عصره، ولربما هذا ماحدا بمؤرخ تطوان محمد داوود إلى القول:

«ثم إن الذي يرغب في الاطلاع على ماخلفه رجال تطوان من آثار علمية أو أدبية لايجد ما يشفي غليله من ذلك، أولاً لقلة تلك الآثار، وثانيًا لضياع جل ما صدر منها، والواقع أن عدد المؤلفين من علماء تطوان قليل ومن يقول الشعر من رجالها أقل...». ويبدو من خلال الصمت الذي يحوم حول هذه الشخصية، أنه تم تجاهله من طرف جيل عصره، الذين جاءوا بعده، يقول محمد داوود: «فلم نقرأ اسمه في كتاب، ولم نسمع به أو بأي شيء عنه من أفواه الشيوخ، إلى أن وقع العثور أخيراً على مجموع خطي كبير له، فكان هو الذي عرفنا به وبآثاره»(٩).

اسمه أبو عبدالله محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن علي الرافعي الأندلسي التطواني، ويعرفه المؤرخ داوود بالفقيه الأديب الشاعر الناظم الكاتب، فهو إذن من فقهاء وأدباء تطوان خلال القرن ١٧، لكن بالعودة إلى نص الرحلة نجد معطيات اجتماعية وثقافية بالغة الأهمية تلقي الأضواء على هذه الشخصية وطريقتها في النظر إلى الأشياء. فالرافعي من خلال الرحلة ينتمي إلى أسرة من مستوى متوسط أو شعبي، ومايدعم هذا الاتجاه المعاناة التي لقيها عند اعتزامه السفر لقضاء فريضة الحج: «لما عزمت على حج بيت الله الحرام، وزيارة قبر نبينا عليه الصلاة والسلام منة من الله وإرشادًا، ونعمة منه سبحانه وإسعادًا وشمرنا ساعد جدي واتخذت من الحزم والعزم جهدي، ولم أزل أحاول أن أرهن أو أبيع ما كان بيدي من الطارف والتليد السريع، لأتزود في تلك الطريق، وأتعاون مع الصاحب والرفيق؛ فلم يرد أحد من التجار، الذي خصوا في الوقت بالجاه والافتخار، أن يرهن منا شيئًا أو يشتري، فسرت في حيرة من أحوال الزمان الذي يصيب بمصائب ويعتري.. فما زلت أخاطبهم بلين من القول وخضوع وأنا بينهم رهينًا مهينًا مروع. فكل منهم

اعتذر لنا بأعذار واهية اعتل بها فأدبر وسار، فلما عاينت امتناعهم عن المعروف وفعل الطاعة الذي المؤمن بها موصوف، صرت كالواله الحيران في الأزقة أطوف وكلهم حاد عن فعل الخيرات، وامتنع لنا عن قضاء الحاجات. . .»(١٠).

والرافعي أيضًا من خلال نص الرحلة شخص متصوف وزاهد في متاع الدنيا، ويتأكد ذلك من كثرة النصوص التي يقلل فيها من قيمة الدنيا ومتاعها، ويمدح الآخرة والطريق الذي يوصل إليها: «أو ماعلموا بأن الدنيا دار غرور، صفوها ممزوج بكدر يتقلب بأهلها وتدور، تضع كل سربي شهير، وترفع كل خافض حقير»(١١).

«فلما بلغت البغية والمراد، اعتقدت أي اعتقاد، وتحققت أني فزت بالمطلوب وظفرت بالكنز الذي ليس له نفاد، وعلمت أن التعلق بالمخلوق خيبة وحرمان، والتشبث بأحد سوى الله عبث وخذلان».

ومن ذلك أيضًا القصيدة التي مطلعها:

جعلت رجائي في إلهي وخالقي
وأيقنت أن الله مغني ورازق(١٢)

وتنسجم هذه المعطيات إلى حد بعيد مع البيئة الثقافية ومن ثم الانتماء الثقافي للرافعي، فقد عاش خلال القرن السابع عشر، حيث عرفت الحياة الثقافية ضعفًا كبيرًا كنتيجة طبيعية للمخاض السياسي الذي كان يعيشه المغرب بسقوط الدولة السعدية وقيام الدولة العلوية، وقد تميزت تطوان خلال هذه الفترة، خاصة في الربع الأخير من القرن السابع عشر بنشاط وحركة ثقافية ملحوظة خاصة بعد استقرار الشيخ علي بركة فيها، وقيامه بتدريس العلوم الدينية واللغوية والأدبية(١٣).

وقد كان الرافعي أحد تلامذته، وكان شديد التعلق به، وهي الظاهرة التي كانت تميز الحياة الثقافية والعلمية والدينية خلال هذه الفترة (الشيخ/ التلميذ).

وإذا كنا لانعرف سنة ولادته بشكل مدقق، فقد كان حجه عام ١٦٨٤، حيث كان عمره كما يذكر في الرحلة ستاً وخمسين سنة، من ثم يحتمل أن يكون مولده

سنة ١٦٣٠، ويتضح من تقاريظ ديوانه أنه كان لايزال حيّاً عام ١٦٩٨، حيث كان عمره آنذاك ٧٠ سنة(١٤).

وفي الأخير يعدّ الرافعي من رجال تطوان القلائل الذين تركوا لنا تراثًا مكتوبًا يعرفنا بهم وبعصرهم، فقد ترك مجموعًا خطيّاً غير منشور يضم: رحلته المشرقية، ديوانه الشعري، تأليف في الأدعية والأذكار، وأخيرًا، تأليف في الرسائل.

إنه إذا كان هدفنا من هذه الدراسة تحديد الصورة التي قدمها الرافعي عن الشرق العربي الإسلامي من خلال سفريته الحجازية والكشف عنها؛ فإنه لايمكن التوصل إلى هذه الصورة دون التطرق إلى الظروف العامة التي واكبت الرحلة، ونقصد بذلك الظروف الطبيعية والمناخية والبشرية وطريقة السرد والحكي، خصوصًا أن هدف الرحالة هو الحج. ولذلك فلن يكون هناك تردد في ركوب الأخطار على اختلافها، وهذا مايمنح الرحلة الحجازية المغربية بعد المغامرة.

لقد انطلقت هذه الرحلة كما ذكر الرافعي يوم الجمعة جمادى الأولى بعد صلاة الظهر من عام ١٠٩٦، الموافق ١٦٨٤، وانتهى من كتابتها بعد عودته من الشرق بشهرين من عام ١٦٨٥، وهذا مايجعل الذاكرة ما زالت حافظة لتفاصيل الأحداث أكثر من تراكم السنين. أما بالنسبة للظروف والأهوال والأخطار، التي - كما سبق أن قلنا- واكبت الرحلة، فقد انطلقت مع انطلاق الرحلة "بحلق الوادي" ❊ الذي مكث الرافعي فيه ستة أيام في انتظار قدوم المراكب واستقرار الريح(١٥)، فيستفاد بداية عن ظروف انطلاق الرحلة، كما هو الحال بالنسبة لباقي المراكز الأخرى التي حط بها هذا الرحالة، وأراد إعادة الانطلاق منها سواء بالجزائر أو باقي المناطق الأخرى التي زارها بحوض البحر المتوسط أن السفر عبر المراكب والسفن لم تكن له مواعيد محددة، وفي كثير من الأحيان يأتي فجأة وبلاسابق إنذار، والسبب في ذلك في اعتقادنا هو قلة وسائل النقل البحرية كأساليب للمواصلات، ثم قلة استعمالها من طرف المغاربة للنقل الداخلي والخارجي، وأيضًا وهذا مهم جداً خضوع هذا النوع من المواصلات للتقلبات المناخية المفاجأة. دون أن ننسى الظروف

السياسية المضطربة في الحوض المتوسطي مثل القرصنة.

إن هذا الظرف التقني - مواعيد السفر غير مضبوطة - مرتبط بشكل مباشر بعامل طبيعي مهم وهو الرياح الذي يطرح في الواقع أكثر من إشكال، فمن جهة يمكننا من التعرف على طرق الإبحار بحوض البحر الأبيض المتوسط خلال تلك الفترة، وهي طرق تقليدية حيث لاتبتعد السفن فيه كثيراً عن السواحل أو كما سماها F. Braudel بـ Cabottage(١٦)، وهذا الإشكال كان مطروحًا ليس فقط بالنسبة للسفن الإسلامية بل حتى السفن الأوربية على الرغم من تطور تقنيات الإبحار، خاصة بعد تجربة الإبحار في المحيطات(١٧)، ومن جهة ثانية أن هذا العامل شكل في الواقع أكبر تحدٍّ للسفن والرحالة خاصة عندما تكون كاسحة وتهب عكس اتجاه السفن التي لم يكن بإمكانها الإبحار في الاتجاه المعاكس للرياح، فهي سفن شراعية تعتمد الريح في إبحارها. ولقد أكثر الرافعي من تعداد المواقع التي هبت عليهم فيها الرياح الشرقية، التي صدت هبوبها عن المراد والبغية.. (١٨)، وفي موقع آخر يقول أيضًا: «فتراكمت علينا الأرياح لكن من الله علينا بالنجاة والنجاح، وأخذنا في الانفلات إلى أن حصلنا مرسى رجكون والقلب ذات أوصاب من الغرق وشجون...»(١٩).

ومن العوامل الأخرى المرتبطة بالظروف الطبيعية، أو هي ناتجة عنها تحدث الرافعي عن الخطر من حيث هو معطى طبيعي وسيكولوجي مرافق للرحالة طيلة سفره ناتج عن الخوف وشدة العواصف؛ يقول الرافعي: «والأرياح تهب، والأمطار تصب، والأنام خاشعة إلى ربها ضارعة تصيح بصوت واحد العفو يامالك ياواحد، فكم من إنسان شاهدته منكمشًا بالطريق كادت نفسه تزهق من شدة البرد، وكم من سائر على قدمه اعتراه أكمام من المطر وشدة البرد وألمه، بقي مطروحًا في الطريق.. هناك كدت أخرج عن حسي مما عانيت من البؤس والنكد، ولايلوي أحد على أحد، ولو يكون أبيه، لما هو فيه...»(٢٠)، والحادثة التي تحدث عنها الرافعي يذكر أنه مات بتلك الليلة ما بين ١٨٥ شخصًا، ونفق عدد كبير من الدواب.

والرحلة مليئة بمثل هذه المشاهد الخطيرة القاطعة للأنفاس. ومن الأخطار الأخرى التي كانت سائدة في حوض البحر الأبيض المتوسط خلال القرن السابع عشر وتنعكس بشكل واضح في رحلة الرافعي، خطر القرصنة: الأعداء أو الكفار حسب اصطلاح الرافعي، فقد ذكر هذا عند اقترابهم من مدينة وهران، حيث قصدهم مركبان للأعداء للإيقاع بهم، فاستعدوا للقتال . . . ولم ينجوا منهم إلا بهبوب الرياح ونزول الظلام(٢١). وقد تكرر هذا المشهد أيضًا عند وصولهم إلى جزيرة رودس، حيث تعرضوا للاصطدام بمراكب الكفار التي كانت محاصرة للبلاد، وهذه الصورة التي يقدمها الرافعي تعكس المستوى الذي بلغته القرصنة في هذه الفترة إذ كان بإمكانها أن تحاصر المدن والجزر، ولايذكر الرافعي كيف تم فك الحصار، ويكتفي بالقول: «بأن الله نجاهم منهم»(٢٢). كما أن ندرة الماء هي أيضًا من أخطر المشكلات التي واجهها الرحالة والركب المغربي نظرًا للخطر الذي تشكله على حياة الناس، وأيضًا للفتنة والاضطراب الذي تسببه للركب، يقول الرافعي: «فما زلنا نطلب الوجه كل الطلب وجل الماء نفد، وعم الناس العطب إلى أن كنا قريب من موضع يقال له الإكراه، قنطت الناس، وكرهوا بعضهم غاية الإكراه، فلو رأيت الناس في قنط من قلة الماء وعلاهم اللغط»(٢٣) وفي موضع آخر يقول: «أما الركب المغربي فهو تبع الركب المصري؛ فإن فض عنه الماء يسرع إليه ويجري، وإن نفد ماؤهم كان للركب اضطراب، ويلحق الجميع قنط وبؤس من الظمأ واكتئاب»(٢٤).

لاتنحصر الظروف المواكبة للرحلة عند الرافعي في الظروف الطبيعية فقط؛ بل تمتد إلى البشرية والوبائية، فبالنسبة للأولى يتحدث الرحالة عن ظاهرة اللصوصية ومشكل الطرق اللذين يعكسان ظاهرة انعدام الأمن حتى وإن كان الأمر يتعلق بأداء فريضة إسلامية كالحج، وقد حاول الرافعي تقديم نموذج لهذه الظاهرة عند قوله: «. . . كم ضاعت هناك من أموال، وفكت من رقبة، هناك تدهش الفحول من الرجال، وتذهل العقول بين تلك الجبال، فأظهرنا أهبة الحرب عند القدوم وتدرعوا

بلامات الحرب سائر الركب خصوصًا وعمومًا، لأن المقاطعين والمتعرضين للركب كانوا ناظرين. . .»(٢٥).

أما الثانية فيتعلق الأمر بحالة مرضية أو بشكل أصح وباء، وقد صادفه ذلك في مصر وبالتحديد في الإسكندرية، هذا الوباء عبارة عن حمى تصيب الإنسان وقد تؤدي به إلى الموت. يقول الرافعي: «هذا الوباء قد أناخ بالإسكندرية ورسا، ورمى بسهمه المصيب واردًا وصادرًا مما لايحصى، وفشا في كل البلاد، وعم ببلواه كل العباد، وتنفس العيش وتكدر، ولا محيد للفرار بل تعذر لكنا لجأنا للتوسل والطلب من المولى العصمة من الوباء لأنه خير رحم وبه الهموم تجلا»(٢٦).

الشرق - الآخر - في رحلة الرافعي:

تجدر الإشارة في البداية إلى أن الشرق الذي يعنيه الرافعي في رحلته لايتجاوز مصر والحجاز، وتكاد جميع الصور التي نقلها إلينا تنحصر في هذين البلدين، ومعنى هذا أن الرحالة يقدم لنا مشاهد من خلال مواقع معينة. من جانب آخر، فإن الرحلة هي رحلة حجازية، إذن فإن الشرق بالنسبة للرافعي له قيمة روحية بالدرجة الأولى ثم قيمة معرفية بالدرجة الثانية، وهذا ماسنكتشفه من خلال تتبع تنقلات الرافعي بمصر والحجاز؛ وتنعكس نظرة الرافعي للأشياء على ما سينقله إلينا عن الشرق من خلال رحلته، وعلى هذا الأساس، فإن خطاب الرافعي يركز على موضوعين أساسيين؛ الأول: اجتماعي مع إشارات عفوية إلى مظاهر سياسية واقتصادية. والثاني: ديني/ ثقافي علمي يصعب الفصل بينهما.

وليس معنى هذا التدقيق أن الرافعي يقدم تفاصيل دقيقة حول هذه المواضيع بقدر ما يقدم صورة فوقية بانورامية. . هذا بالإضافة إلى سرعته في نقل الصور بمعنى أنه لايمنح المشاهد الوقت الكافي، فما يكاد يصف شيئًا حتى ينتقل إلى شيء آخر، وهذا يؤثر بشكل كبير على ما ينقله إلينا.

* **الموضوع الاجتماعي:**

ركز الرافعي في رحلته على وصف مقتضب للعادات الاجتماعية والدينية وبعض القلاع والمدن، وعلى الرغم من ذلك؛ فإن هذا الوصف لايمنع من بناء صورة الرافعي للشرق المصري والحجازي.

- **العادات والتقاليد:**

إن العادات والتقاليد التي يتحدث عنها الرافعي في رحلته، هي تلك المرتبطة بالأمور الدينية كعادات المصريين مثلاً في الاحتفال بالمولد النبوي الشريف، أو العادات المواكبة لمراقبة هلال شهر رمضان. أو الاحتفال بكسوة الكعبة، أو المواسم والأعياد، وحلول رمضان... ولاحديث عن العادات والتقاليد بما هي كممارسات يومية سواء بشكل فردي أو جماعي، سواء فيما يتعلق بالعلاقات الاجتماعية أو دور المرأة واللباس، والأكل... إلخ، وقد لانستغرب هذا من رحالة مثل الرافعي الذي يمثل الشرق بالنسبة له قيمة روحية، مثالية ومعرفية.. فالأشياء التي تشكل قيمة بالنسبة له هي المرتبطة بكل ما هو ديني وروحي ومعرفي.. وما عدا ذلك فهي أشياء غير ذات قيمة..

إنه إذا كان الكثير من الرحلات المغربية أو الأوربية تجعل من المشاهد - أو الآخر - الموضوع المحوري في السفر؛ فإن رحلة الرافعي كما هو الحال بالنسبة لعدد كبير من الرحلات المشرقية المغربية تجعل من الذات أو الأنا موضوعًا محورياً سواء بشكل ضمني أو علني، وهذا مايفسر قلة المشاهد المشرقي في رحلة الرافعي خاصة ماتعلق بالمجتمع.

من العادات والتقاليد التي استعرضها الرحالة عن المجتمع المشرقي مراقبة هلال شهر رمضان من حيث كونه يشكل حدثًا ذا قيمة كبيرة، ويعكس في الوقت نفسه تدين المجتمع الشرقي (المصري) واحتفاءهم بحدث من هذا النوع، يقول الرافعي: «فكم من آلاف من الناس يمرون بثياب فاخرة متنوعة الأجناس..، وكم مشاعيل

تشعل تلك الليلة وتضيء، وكم من الشمع الأبيض يشعل بأزقتها فتستضيء . . . فقد عادت تلك الليالي نهاراً»(٢٧)، وتكاد تكون هذا الصورة هي الأكثر تداولاً في رحلة الرافعي إلى الشرق، وعند حديثه عن المجتمع المشرقي، كما هو الشأن مثلاً عند الحديث عن عادات وتقاليد المصريين في الاحتفال بالأعياد والمواسم، التي عبر عنها بالمهرجان الذي يدوم أربعة أيام: «ثم جاءت أيام المواسم والعيد وأصبح مهرجان البلاد، فكان يوم سعيد، قد تزين أهل مصر بكل ثوب فاخر جديد وانتخبوا من الأرزاق بكل صنف من الطعام مفيد، غير أن أكثر لباسهم الحرير، فما من أحد إلا لبسه. . كأنه عندهم مباح يابصير، ولعلهم أخذوا بقول النابغة أو جرير . . . لم يزالوا في مهرجان، وخير موسم ورفاهية من العيش وفرح مقيم لهم في كل موضع ومكان أجناس من اللهو واللعب بكل وقت وأوان، ومازال ذلك بهم إلى تمام أربعة أيام. . .»(٢٨).

إلى جانب هذه الصورة يضيف الرافعي صوراً أخرى من الجنس نفسه ينفرد بها المجتمع المصري عن باقي المجتمعات الإسلامية الأخرى، وربما هنا قد يكون بعض صور للغرابة. . وهي مرتبطة باستعدادات خروج الركب المصري، حيث يتم إخراج كسوة الكعبة والطواف بها على رءوس الرجال في كل المدينة، إذ يخرج لمشاهدتها أعيان البلاد وعدد كبير من الخلف، ووراء هؤلاء جاء الفقراء، وتلامذة السادات الكبار حاملين أعلام كل طائفة من الأولياء، حيث يزيد عددهم على ألف وثلاث مئة، ويتبعهم العساكر والجنود بطبول ومزامير ورايات وبنود وخيول مسوَّمة عليها الأبطال في هيئة عظيمة(٢٩)، وفي مكان آخر من الرحلة يقول الرافعي: «وفي اليوم السابع عشر خرج المحمل فلا يوم أعظم منه ولا أجمل يبرز لرؤيته الخاص والعام والجليل والحقير، والشريف والمشروف، والكبير والصغير، ويظهرون فيه أنواع المفاخير والزينة في المحافل والمحاف، يخرجون لتشييع المحمل. . وذلك من أكبر الأمور المهمة عندهم، بحيث يمكن المحمل الباشا بيده لأمير الحاج، وهذا الحكم متداول بينهم، ويخرج معه العساكر والجنود وطبول

ومزامير ورايات وبنود كل ذلك أمام المحمل يسير والمحمل محفوف بالذهب المنير»(٣٠).

ويتكرر السيناريو نفسه عند زيارة الرافعي لمنطقة الحجاز الذي تكاد مشاهدته بها تنعدم، فهو لايقول سوى بضع كلمات عند حديثه عن مكة المكرمة وعن المدينة المنورة التي قال الرافعي عن سكانها: «أخلاقهم مستحسنة ذات حسن وجمال...»(٣١)

الواقع الحضري:

لا شك أن ضعف حضور الواقع الحضري برحلة الرافعي يعود في أساسه أولاً إلى شخصية الرافعي ومكوناتها الثقافية والدينية. ثانيًا إلى هدفه من الرحلة، الذي هو ديني محض: أداء مناسك الحج، ثم ثالثًا وهي على علاقة بالأولى والثانية، إلى طريقة نظرته للأشياء، فقد سبق وأن قلنا إن الشرق بالنسبة للرافعي هو قيمة روحية ودينية، ثم معرفية، وهذا مايجعل صورة الرافعي عن الشرق صورة فضاء روحي مثالي، ديني ولما لاصوفي، لذلك لاتجد في رحلة الرافعي مجالاً أوسع للمجتمع وما يتفرع عنه من علاقات وحركية يومية ومدنية.. وعلى الرغم من كون مصر تشكل محوراً أساسياً في الشرق، وهذا ماتعكسه كتب الرحلات المغربية إليها خلال القرنين ١٧ و١٨؛ فإننا في هذه الأخيرة لانكاد نرى سوى ملامح مجتمع مصري لاتسمح بإعطاء صورة متكاملة عنه. وإن كان مايقوله الرافعي يعكس في الواقع مشاهد لحياة مدنية رغدة؛ يقول الرافعي عند زيارته لمدينة رشيد: «بلاد لها أسواق عديدة، وشوارع عريضة، وفنادق في كل مكان، ومحل، لكل من يأوي إليها في كل وقت وأوان، فلو رأيت أسواقها بالخيرات معمرة والناس يموجون في أزقتها والفواكه مثمرة، ناسها أفاضيل حسان مالهم شبيه في المكارم والإحسان، يكرمون من آوى إليهم من كل قطر ومكان، أكثر لباسهم الديباج الملون، ينتخبون أفضل ما يكون من الثياب الفاخرة»(٣٢)، أو مثلاً عند قوله وبإعجاب كبير: «وجعلت

أجول في أسواق مصر وأطوف . . فتارة أشوش في أزقتها، وتارة أتره بصري في سككها الباهرة . . وتم جامع جمع أشتات المكرمات بحسنه الفائق، حاز الغرر الواضحات»(٣٣) أو أيضًا عند قوله: «وكم بمصر من وكالة فائقة الحسن والجمال، وحانات في كل الجهات لهم بهجة وكمال، وكم من أسواق عديدة، عريضة مديدة ودكاكين تراهم بالمتاجر عامرة، بسلوع منوعة الأجناس فاخرة، لاتمر بدرب من الدروب إلا بزحمة من الناس، أكثرهم ركوب، على خيول أو بغال وحمير . . وكم من قيسارية بأنواع من المتاجر مملية، كأن أربابها بتلك الدكاكين ملوك على الأسرة كأقمار مضيئة»(٣٤). أما الحجاز فلا ذكر له على هذا المستوى!!

الديني والمعرفي:

كما هو الشأن بالنسبة لكل الرحلات الحجازية المعرفية في الفترة الحديثة؛ فإن تداخل الديني والمعرفي يشكل ظاهرة عامة، إلى درجة يمكن القول معها إن الديني هو موضوع للمعرفي. . وتلخص المعارف المتداولة في مصر في تلك الفترة هذه الوضعية: مثل التفسير، والحديث، وعلم الكلام والنحو . . إلخ، وفي هذا السياق تشكل رحلة الرافعي نموذجًا واضحًا لهذه الظاهرة إلى درجة يصعب معها وضع فواصل بين الديني والمعرفي. . وتعكس هذه الوضعية استمرار واعتماد الشرق، خاصة مصر، كمركز استقطاب معرفي من طرف المغاربة.

إن الديني والمعرفي في رحلة الرافعي يستوطنان مواقع كثيرة من الرحلة وبشكل مكثف، وسنحاول هنا اختزال بعض منها، ولنبدأ بمذهب أهل مصر الذي حسب الرافعي يتميز بالتعددية والاختلاف عن المغرب، ويصنفها على الشكل التالي: المذهب الحنفي الأكثر انتشارًا بمصر، ثم، الشافعي، ثم المالكي، وأخيرًا الحنبلي وهو أضعفهم . . ومن المعروف أن الاختلاف المذهبي بين المشرق والمغرب يثير بعض الحساسية كما نلاحظها عند الرافعي بوصفه مالكيًا: «ولم أر بمصر قاطبة جامع لمالكي، مع أن مذهب مالك بمصر، أشهر من شمس النهار

وأظهر . . .»(٣٥)، وهذا انتقاد ضمني لتهميش مذهب الإمام مالك من طرف المصريين.

أما فيما يتعلق بالجانب العلمي، فيحدثنا الرافعي عن شرق علمي ومعرفي يمثله الأزهر؛ يقول: «ثم إني بادرت إلى جامع الأزهر عند حلول السفر. . ألفيت فيه خمسة وعشرين مجلسًا كلهم يقرأون في العلوم، من العلماء العارفين الذي فخرهم بمصر معلوم. كعلم الحديث والتفسير والفقه والأصول والبيان. . .»(٣٦) ويعزز الرافعي هذه الصورة بما رآه من كتب، كالمصحف الكريم المكتوب بخط الصحابي أسامة بن زيد. . وكتاب حول مناقب السادات والشاذلية. . . إلخ، أو بمن التقاهم بالشرق من علماء كالفقيه سيدي علي الفياض المعروف بعلمه في الفقه والحديث والنحو واللغة العربية. . . إلخ.

خاتمة

إنه من خلال مجمل المشاهد المشرقية التي استعرضها الرافعي في رحلته يقدم لنا هذا الرحالة المغربي من القرن السابع عشر صورة للشرق العربي كما رآه أو بتعبير أصح كما أنتجه من خلال أسلوبه وطريقة نظره لشرق روحي ديني ومعرفي ينسجم مع شخصية الرافعي الدينية وطريقة نظرته للأشياء.

إن الصورة التي قدمها الرافعي للشرق هي أيضًا صورة مجموعة من الرحالة المغاربة في الفترة نفسها: كالعياشي، والإسحاق، والعامري، والقادري الحسني، وابن مليح السراج. . . إلخ.

أكثر من ذلك هي أيضًا صورة «الرأي العام» المغربي خلال القرن السابع عشر، فقد أصبح الشرق يشكل للمغاربة رحلة في الزمان والمجال من حيث كونه يختزن ذاكرة تاريخية جماعية وتضم أرضه الأماكن المقدسة الإسلامية.

الهوامش:

* هذا الموضوع شارك الباحث به في ندوة تطوان خلال القرنين ١٧-١٨ التي نظمتها "مجموعة البحث في التاريخ المغربي الأندلسي" بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان بتاريخ ٠٩-١٠-١١/ ٩٥ إلا أن هذا العمل لم ينشر ضمن أعمال الندوة؟!

(١) عبدالهادي التازي، **"التاريخ الدبلوماسي للمغرب"** الجزء٩، مطبعة فضالة، المحمدية ١٩٨٦ ، ص ص: ١١-١٣ ، يذكر الدكتور عبدالرحيم بنحادة أن مسألة رسم الحدود هي بمثابة سلوك جديد في تاريخ العلاقات المغربية العثمانية. ذلك أن مصطلح "الحدود" يغيب في القوانين السياسية الإسلامية، لكون الحدود لايمكن أن تكون داخل دار الإسلام، بل تكون بين دار الحرب ودار الإسلام.. ويلاحظ كذلك أن تحديد الحدود بين المغرب وولاية الجزائر العثمانية سابقة قد خرق بموجبها الطرفان قاعدة شرعية؛ لأن الأمة الإسلامية لها مجال واحد، ونتفق معه على أن رسم الحدود إجراء أملته الظروف السياسية للطرفين المغربي والعثماني. انظر عبدالرحيم بنحادة، **« المغرب والباب العالي من منتصف القرن السادس عشر إلى نهاية القرن الثامن عشر»** أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في التاريخ الحديث، الجزء الأول، السنة الجامعية ١٩٩٧ ، ص ص: ٢٠٧-٢٠٨ .

(٢) على عهد المولى إسماعيل وقعت كما يذكر الدكتور بنحادة ثلاث مواجهات عسكرية خطيرة:

الأولى عام ١٦٧٨ : حيث قام المولى إسماعيل على التراب الجزائري.

الثانية عام ١٦٩١ : حيث قام السلطان إسماعيل بهجوم على تلمسان.

الثالثة عام ١٧٠١ : حيث قام المولى زيدان بمناوشات عسكرية بنواحي تلمسان، ص ص ٢١٣-٢١٤ .

(٣) نفسه، ص ٢١٩ .

(٤) عبدالهادي التازي، مرجع سابق، ص١٤ .

(٥) ElGhachi Mustapha, **l'Empire Ottoman a travers les récits de voyages français au XVIIe -XVIIIe siécles**, Thése de Doctorat, PAU 1993, El Ghachi Mustapha, Les Relations Franco-Ottomans aux XVIe-XVIIIe siécles, Revue **historique arabe des études Ottomanes**, No. 11-12 Octobre 1995.

(٦) عبدالرحيم عبدالرحمان: "العلاقات الاقتصادية والاجتماعية بين الولايات العربية أيام العصر العثماني" . **المجلة التاريخية المغربية**، العددان ٢٩-٣٠ نوفمبر ١٩٨٣، ص٣٩٩-٤١٧ .

- عبدالرحيم عبدالرحمان: "دور الجالية المغربية في تاريخ مصر" **المجلة التاريخية المغربية**، العددان ٧-٨، ١٩٧٧، ص: ٩٩ .

- ليلى الصباغ، "الوجود المغربي في الشرق المتوسطي في العصر الحديث"، **المجلة التاريخية المغربية**، العدد ان ٢٩-٣٠، ١٩٨٣، ص ص ٧٩-٨٣ .

(٧) عبدالرحيم المودن: **أدبية الرحلة**، دار الثقافة، البيضاء، ١٩٩٦، ص١٣ .

(٨) محمد داوود، **تاريخ تطوان**، ج١، المطبعة المهدية، تطوان ١٩٩٥، ص٣٠٠ .

(٩) نفسه.

(١٠) علي الرافعي "**المعارج المرقية في الرحلة المشرقية**" مخطوط بالخزانة الداودية بتطوان. ص ص٣-٤ . لقد اعتمدنا في دراستنا هذه على النسخة التي قام المؤرخ داوود بتخريجها ورقنها على الآلة، وهي مطابقة تمامًا لنسخة المخطوط الأصل، وموجودة بالخزانه نفسها.

(١١) الرافعي، ص٤ .

(١٢) نفسه ص ص٥-١١ .

(١٣) عبدالله المرابط الترغي، **الحياة العلمية على عهد الدولة العلوية**. ج١، ص٢٦٥ .

(١٤) محمد داوود، **تاريخ تطوان**، ج١، ص٤٠٩ .

(*) حلق الوادي المقصود به وادي مرنيل القريب من مدينة تطوان .

(١٥) الرافعي، ص ص ٥-٤ .

(١٦) F. Braudel. **La Mediteraneé et le Monde Méditerranéen a l'époque de philippe** II Paris 1979. pp. 100-185.

(١٧) El Ghachi Mustapha: **L'image de l'Empire Ottoman.** op. cit. p.95.

(١٨) الرافعي، ص١٣ .

(١٩) نفسه، ص١٤ .

(٢٠) نفسه، ص٢٠٦ .

(٢١) نفسه، ص ص ١٥-١٦ .

(٢٢) نفسه، ص٣٦ .

(٢٣) نفسه، ص٢٠٣ .

(٢٤) نفسه ص ١١٦ .

(٢٥) نفسه، ص ٢٠٥ .

(٢٦) نفسه ص ٢٦٨ .

(٢٧) نفسه، ص٧٥ .

(٢٨) نفسه، ص ص ٨٦-٨٧ يلاحظ كثرة التصنع، وكثرة السجع في أسلوب الرافعي، مما يجعل لغته صعبة القراءة أحيانًا .

(٢٩) انظر، ص ١٠ .

(٣٠) ص ١٠٩ .

(٣١) ص ١٨٩ .

(٣٢) الرافعي، ص٦٧ .

(٣٣) نفسه .

(٣٤) نفسه، ص ٧٠ . يبدو أن الرافعي لايتقن اللغة العربية، ويبدو ذلك واضحًا في أسلوبه الركيك واستعماله لألفاظ عامية من مثل «السلوع» .

(٣٥) نفسه .

(٣٦) ص ١٠٩ .

المصادر والمراجع

- علي الرافعي **"المعارج المرقية في الرحلة المشرقية"** ، مخطوط بالخزانة الداودية بتطوان .
- محمد داوود، **"تاريخ تطوان"** ، ج١، المطبعة المهدية، تطوان، ١٩٧٥ .
- عبد الهادي التازي **"التاريخ الدبلوماسي للمغرب"** ، الجزء ٩، مطبعة فضالة، المحمدية، ٩٨٦ .
- عبدالرحيم بنحادة: **"المغرب والباب العالي من منتصف القرن السادس عشر إلى نهاية القرن الثامن عشر"** أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في التاريخ الحديث، ج١، فاس ١٩٩٧ .
- عبدالرحيم المودن، **"أدبية الرحلة"** ، دار الثقافة، البيضاء، ١٩٩٦ .
- عبدالله المرابط الترغي، **"الحياة العلمية على عهد الدولة العلوية"** ، أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في الآداب، الجزء الأول، مرقونة على الآلة، تطوان، ١٩٩٣ .
- عبدالرحيم عبدالرحمان "العلاقات الاقتصادية والاجتماعية بين الولايات العربية أيام العصر العثماني" ، **المجلة التاريخية المغربية**، ع ٢٩-٣٠، نوفمبر ١٩٨٣، ص ص ٣٩٩-٤١٧ .

- عبد الرحيم عبدالرحمان، "دور الجالية المغربية في تاريخ مصر"، **المجلة التاريخية المغربية**، ع ٧-٨، ١٩٧٧، ص٩٩ .
- الدكتورة ليلى الصباغ، "الوجود المغربي في الشرق المتوسطي في العصر الحديث"، **المجلة التاريخية المغربية**، ع ٢٩-٣٠، ص ص٧٩-٨٣ .

-El Ghachi Mustapha, **l'Empire Ottoman a travers les récits de voyages francais au XVIIe - XVIIIe siécles**, Thése du Doctorat, PAU, 1993 .

- El Ghachi Mustapha, les relations franco - Ottomanes aux XVIe-XVIIIe Sicéles, in Revue **historique arabe des études Ottomanes** n°. 11-12 octobre 1995 .

- Fernard Braudel, **la Mediterranée et le Monde Mediterranen a l'époque de philippe II**, Paria, 1979